موقع المكتبة الصوتية للشيخ:

صَالِحِ بنْ سَعَد السُّحَيْمِيّ –حفظه الله-

www.alsoheemy.net

منهج السلف في العقيدة

وأثره في وحدة المسلمين

محاضرة مفرغة لفضيلة الشيخ الدكتور:

صَالِح بن سَعْد السُّحيْميّ - حفظه الله-

المدِّرسُ بِالمسجِدِ النَبويِّ

إنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ وَنَتُوبُ إِلَيْهِ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَرْسَلَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ، وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ، صَلَى اللهُ عَلَيْهِ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا

وَبَعْدُ:

فهذا جهدٌ متواضع، أُسهِمُ به لبيان المنهج الذي كان عليه السلف الصالح في العقيدة ومدى مخالفة الناس لذلك المنهج، مما فرَّقَ كلمة المسلمين وأضعف وحدهم.

وجعلت عنوان البحث:

"منهج السلف في العقيدة وأثره في وحدة المسلمين"

وقد حملني على ذلك إهمالِ كثيرٍ من الباحثين لهذا الجانب؛ أعني جانب العقيدة والذي هو العامل الأول والركيزة الأساسية التي ينبني عليها كيان المجتمع الإسلامي، وتنضوي تحت لوائها صفوف المسلمين؛ منها يستلهمون طريق وحدهم، وعلى ضوئها يشقون طريقهم إلى أعلى قمم المجد والعلا، وبهداها ومبادئها القيمة يفتحون القلوب قبل أن يفتحوا الأمصار والأقطار، ولقد كثرت المؤلفات والخطب والمحاضرات والمواعظ والندوات، التي تنادي بوحدة المسلمين وجمع كلمتهم وتوحيد صفوفهم بالأساليب المتعددة، وطرح الحلول الكثيرة؛ لكن هذه الأساليب والحلول، ناقصة وغير تامة نظرًا لاهتمامها بالجوانب الفرعية فقط.

فنجد أن جماعة ممن يهتمون بعوامل التضامن الإسلامي يركزون جُلَّ اهتمامهم على الجانب السياسي، ونجد جماعة أخرى تركز على الجانب الأخلاقي، ونجد جماعة ثالثة تركز

على جوانب الترغيب والترهيب والزهد والورع، وقلَّ أن تجد من بين هؤلاء من يهتم بالجانب الأساسي والركن العظيم، والذي هو الحصن الحصين، والمنطبق المتين لجمع كلمة المسلمين؛ ألا وهو عقيدة التوحيد الذي جمعنا الله به بعد الفرقة، وألف بين قلوبنا بعد التمزق؛ حتى أصبحنا به أمة واحدة ذات هدف واحد ومنطلق واحد، وعقيدة واحدة هي مصدر عزتنا، وعنوان سعادتنا، ومناط وجودنا في هذه الحياة؛ إنها عبادة الله الذي لا إله غيره، ولا رب سواه، إنه الهدف الأسمى والمقصد الأعلى الذي خلقنا الله له، وأوجدنا من أجله؛ كما قال تعالى: **{ومَا خَلَقْتُ الجِّن والإِنْس إلاَّ لِيعْبُدُون}**[1]

وقال تعالى: **{فَاعْبُد الله مُخْلصا لَه الدِّين}**[2]

وقال تعالى: **{ومَا أُمِروا إلاَّ لِيَعْبُدوا الله مُخْلِصِين له الدِّين حُنفَاء وَيُقِيموا الصَّلاة ويُؤْتُوا الزَّكاة وذلكَ دِينُ القيِّمة}**.[3]

إذا تأملنا هذه الآيات الكريمات وما جاء في معناها -وما أكثره في كتاب الله-؛ وجدنا أن أساس كل عمل في الإسلام، إنما ينطلق من العقيدة ويرتكز عليها كما يرتكز البناء على أركانه.

«والبيــــتُ لا يبْتنَـــى إلاَ لَهُ عَمَدٌ ** وَلاَ عِمَاد إذا لَمْ تُرْسَ أوَتَادُ»

إذا عرفنا ذلك فإن أيّة دعوة إلى التضامن الإسلامي إذا لم ينطلق أصحابها من هذا المبدأ الأساسي، ولم تؤسس على هذا البناء الراسخ، ولم تقم على تحقيق التوحيد وتخليصه من شوائب الشرك والبدع والمعاصي؛ فإنها دعوة سيكتب لها الفشل لا محالة عاجلاً أم آجلاً؛ لأن البناء لا يقوم في الهواء، ولا يمكن تشييده إلا على أرض صلبة؛ حتى لا يتعرض للانهيار يومًا من الأيام.

[1] [الذاريات: ٥٦].
[2] [الزمر: ٢].
[3] [البينة: ٥].

قال الله -تبارك وتعالى-: **{أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}.**[٤]

وحينما نقول إنَّ مبنى التضامن الإسلامي على عقيدة التوحيد، وعندما ندعو إلى وجوب الانطلاق من هذا المبدأ، فإن ذلك لا يعني إهمال الجوانب الأخرى التي أشرنا إليها أو إلى بعضها في ما مضى؛ وإنما نعني وجوب التأسيس، وذلك بأن نبدأ أعمالنا كلها من هذا المنطلق، فعلى ضوئه تكون السيادة، وعلى منهجه نبني الآداب والأخلاق، وفي حدوده ندعو إلى الترغيب والترهيب، وعلى مبادئه يوجد -بإذن الله تعالى- المجتمع الإسلامي الصالح المنشود، وتوجد السعادة البشرية في الدنيا والآخرة، ويعود الناس إلى دين الله أفواجًا؛ فينعمون بالخير والأمن والطمأنينة، وِفْقَ هدي العقيدة الخالصة الوارِفة الظلال، فيتخلصون بذلك من أدران الوثنية وأوضار الجهل، وحينئذٍ تصفو قلوبهم وتخلص لله، وتخلع ربقة الشرك الذي ران عليها سنين طويلة، والذي هو أعظم ذنب عُصِيَ به الله -عز وجل- منذ أن انحرف الناس عن الفطرة السليمة التي فطر الله الناس عليها، حتى وقعوا فيما وقعوا فيه من الإفراط والتفريط والغلو والتقصير.

فلقد كان الإنسان في أول خلقه على المنهج الرباني الصحيح عقيدة وسلوكًا وأخلاقًا وعبادةً ومعاملةً حقبة من الزمن.

يذكر علماء التاريخ والسير بأنها تقدر بعشرة قرون، إلى أن بدأ الانحراف في العقيدة في أولئك القوم، الذين بعث الله فيهم نوحًا -عليه الصلاة والسلام-، بعد أن زيَّن لهم الشيطان عبادة الأصنام والأوثان؛ بسبب الغلو في الصالحين.

---

[٤] [التوبة:١٠٩].

فقد روى البخاري -رحمه الله- في صحيحه عن ابن عباس -رضي الله عنهما- في قوله تعالى: **{وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا}**[٥]؛ قال: "هذِهِ أَسْمَاءُ رِجَالٍ صَالِحِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ فَلَمَّا هَلَكُوا؛ أَوْحَى الشَّيْطَانُ إِلَى قَوْمِهِمْ أَنْ انْصِبُوا إِلَى مَجَالِسِهِمْ الَّتِي كَانُوا يَجْلِسُونَ أَنْصَابًا، وَسَمُّوهَا بِأَسْمَائِهِمْ فَفَعَلُوا فَلَمْ تُعْبَدْ؛ حَتَّى إِذَا هَلَكَ أُولَئِكَ وَنُسِيَ الْعِلْمُ عُبِدَتْ".

فانظر كيف بدأ الانحراف عن الصراط السوي نتيجة للغلو بطريق التدريج، وذلك أنهم كانوا يتبركون بدعائهم، وكلما مات منهم أحدهم؛ مثلوا صورته وتمسحوا بها زمنًا طويلاً إلى أن عبدوها باستدراج الشيطان لهم.

ثم صارت سُنَّةً في الناس يهرم عليها الكبير، ويشب عليها الصغير إلى أن بعث الله فيهم نوحـــًا -عليه الصلاة والسلام- فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا يدعوهم إلى توحيد الله، ونبذ عبادة ما سواه؛ فأصروا واستكبروا استكبارًا، ولم يؤمن منهم إلا النزر اليسير.

وما كان عليه حال قوم نوح هي نفس الحال التي ارتكس فيها الناس بعد ذلك من الغلو ومجاوزة الحد واتباع الهوى الذي أودى بالناس إلى عبادة غير الله -سبحانه وتعالى-.

وأخطر هذه الأسباب هو الغلو الذي حذَّر الله منه في غير ما آية من كتابه العزيز.

والغلو هو مجاوزة الحد، وضابطه تعدي ما أمر الله به بالزيادة فيه، وهو الطغيان الذي نهى الله عنه، في قوله تعالى: **{وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي}**[٦]

وكذا قال تعالى: **{يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُم}**[٧]؛ أي: لا تتعدوا ما حد الله لكم.

[٥] [نوح: ٢٣].
[٦] [طه:٨١].

وأهل الكتاب هنا هم اليهود والنصارى، فنهاهم عن الغلو في الدين، ونحن كذلك؛ كما قال -تبارك وتعالى-: **{فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلاَ تَطْغَوْاْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}**[٨]، والغلو كثير في النصارى؛ فإنهم غلوا في عيسى -عليه الصلاة والسلام، فنقلوه من حيز النبوة إلى أن اتخذوه إلهًا من دون الله، يعبدونه كما يعبدون الله؛ بل غلوا فيمن زعم أنه دينه من أتباعه، فادعوا لهم العصمة واتبعوهم في كل ما قالوه سواء كان حقًا أو باطلاً، وناقضتهم اليهود في أمر عيسى عليه الصلاة والسلام-، فحطوا من منزلته؛ حتى جعلوه ولد بَغِيّ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تعالى-: "ومن تشبه من هذه الأمة باليهود والنصارى، وغلا في الدين بإفراط أو تفريط، وضاهاهم في ذلك؛ فقد شابههم كالخوارج المارقين من الإسلام الذين خرجوا في خلافة علي بن أبي طالب -رضي الله عنه-، وقاتلهم حين خرجوا على المسلمين، وكان قتالهم بأمر النبي صلى الله عليه وسلم، كما ثبت ذلك من عشرة أوجه في الصحاح والمسانيد وغير ذلك وكذلك من غلا في دينه من الرافضة والقدرية والجهمية والمعتزلة".

وقال أيضًا: "فإذا كان على عهد النبي صلى الله عليه وسلم من انتسب إلى الإسلام وقد مَرَقَ منه مع عبادته العظيمة؛ فليُعلم أن لمنتسب إلى الإسلام والسنة في هذه الأزمان وقد يمرق أيضاً من الإسلام وذلك بأسباب منها الغلو الذي ذمه الله في كتابه ، حيث قال: **{يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُم}**[٩]" انتهى كلامه -رحمه الله-.

وهذا الكلام يدل دلالة واضحة على أن أعظم فتنة ابتليت بها البشرية؛ إنما هي فتنة الغلو الذي جاء التحذير منه في غير ما آية وحديث، وقد تقدم من الآيات ما يوضح ذلك.

---

[٧] [النساء: ١٧١].
[٨] [هود: ١١٢]
[٩] [النساء: ١٧١].

أما الأحاديث فمنها ما ثبت في الصحيحين، من حديث عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم؛ قال: **((لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتْ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ فَقُولُوا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ)).**[١٠]

وثبت في سنن أبي داود والترمذي وابن ماجه، من حديث ابن عباس –رضي الله عنهما- أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **((إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ فِي الدِّينِ، فَإِنَّهُ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمُ الْغُلُوَّ فِي الدِّينِ)).**[١١]

وهذه نصوص صريحة وواضحة في أن سبب الانحراف عن العقيدة الصحيحة والفطرة السليمة، إنما هو ذلك الغلو ومجاوزة الحد الذي أدى –بالتالي- إلى صرف العبادة إلى غير الله -سبحانه وتعالى-.

الأمر الذي من أجله بعث الله الرسل لإعادة الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد. ذلكم هو الهدف الأسمى الذي أوجد الله من أجله الثقلين -الجن والإنس-، فكل عاقل في هذا الوجود يعرف أنه مخلوق لخالق، ومربوب لرب، أوجده بعد أن لم يكن.

لو طُرِحَ سؤال مفاده: لماذا خُلقت في هذه الحياة؟ ولماذا فُضِّلْتَ على سائر الكائنات الأخرى؟ وما هي مهمتك في هذه الحياة؟ فإن الجواب عند المؤمن حاضر بكل بساطة: إن كل صانع يعرف سر صنعته، لماذا صنعها، ولماذا صنعها على نحو معين دون غيره.

والله تعالى هو صانع الإنسان وخالقه، ومدبر أمره؛ فلنسأله: يا رب لماذا خلقت هذا الإنسان؟

هل خلقته لمجرد الطعام والشراب؟ هل خلقته للهو واللعب؟ هل خلقته لمجرد أن يمشي على التراب؟ ويأكل مما خرج من التراب؟ ثم يعود كما كان إلى التراب؟ فإذا لم يكن

---

[١٠] متفق عليه.
[١١] سنن ابن ماجه: ٣٠٢٩. وصححه الألباني.

الأمر كذلك؛ فما سر هذه القوى والملكات التي أودعها الله الإنسان، من عقل وإرادة ونفس وروح؟

لقد جاء جواب ذلك بما يشفي ويكفي في الكتاب العزيز، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، حيث نصَّ تبارك وتعالى على أنه خلق هذا الإنسان؛ ليكون خليفة في الأرض.

قال الله -تبارك وتعالى-: **{وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ}**[١٢] وهذه الخلافة معناها أن يعرف الإنسان ربه حق معرفته، ويعبده حق عبادته.

قال تعالى: **{اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا}**[١٣].

ويقول تبارك وتعالى: **{وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ * إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ}**[١٤].

وإذًا فالجواب البدهي الذي تنطق به الفطرة في هذا الكون: أن الإنسان عبد الله خُلِقَ لذلك، وسخر الله له ما في السموات وما في الأرض، من أجل تحقيق هذا الغرض.

ومن هنا يعلم كل ذي فطرة سليمة وعقل متجرد أن عبادة الإنسان لقوى الطبيعة ومظاهرها من فوقه ومن تحته؛ كالشمس والقمر والنجوم والأنهار والأبقار والأشجار ونحوها، قلب للوضع الطبيعي وانتكاس بالإنسان أي انتكاس!

---

[١٢] [البقرة: ٣٠]
[١٣] [الطلاق: ١٢]
[١٤] [الذاريات: ٥٦-٥٨]

والإنسان إذًا، بحكم فطرته ومنطق الكون إنما هو مربوب لله –سبحانه- لا لغيره، لعبادته وحده، لا لعبادة بشر ولا حجر ولا بقر ولا شجر ولا شمس ولا قمر، وكل عبادة لغير الله إنما هي من تزيين الشيطان عدو الإنسان؛ ولذا نرى أول نداء يوجهه الله لرسله هو الأمر بعبادته، وبيان أنه لا إله غيره، ولا رب سواه؛ اقرأ مثلاً قوله -تبارك وتعالى-: **{اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُه}**[15].

هذه العبادة لله وحده هي العهد القديم الذي أخذه الله على بني الإنسان، ورسخه في فطرهم البشرية، وغرسه في طبائعهم الأصلية منذ خلقهم، وصورهم وجعلهم في أحسن تقويم، وأوجد فيهم العقل الواعي، الذي يتميزون به على سائر الكائنات، وجعل كل ما حولهم من الآيات البينات دليلاً قاطعًا على وحدانيته –سبحانه وتعالى- وإفراده بكامل العبودية، وأخذ العهد عليهم؛ حيث قال: **{أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ * وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ}**[16].

ومن هنا نعلم أن كل عبادة لغير الله -وإن ظهرت في صورة عبادة حجر أو شجر أو مدر أو هوى- إنما هي من إيحاء الشيطان وتزيينه، ووسوسته بشكل مباشر أو غير مباشر، بغض النظر عن القالب الذي ظهرت فيه تلك العبادة، ولذا نرى أن الله -تبارك وتعالى- قد أخذ العهد على بني آدم منذ أن كانوا في صلب أبيهم آدم.

هذا العهد بين الله وعباده، هو الذي صوره القرآن في أروع صورة وأروع بلاغة؛ حين قال: **{وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُواْ إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ}**.[17]

---

[15] [الأعراف: ٥٩].
[16] [يس: ٦٠-٦١].
[17] [الأعراف:١٧٢-١٧٣].

فلا عجب أن يكون المقصود الأعظم من بعثة النبيين وإرسال المرسلين، وإنزال الكتب المقدسة، هو تذكير الناس بهذا العهد القديم، وإزالة ما تراكم على معدن الفطرة من غبار الغفلة أو الوثنية أو التقليد الأعمى.

ولا عجب أن يكون النداء الأول لكل رسول: **{يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ}**[18].

بهذا دعا قومه نوح وهود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب، وكل رسول بعث إلى قوم مكذبين.

قال تعالى: **{وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ}**.[19]

وقال تعالى: **{وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ}**[20]

وقال تعالى -بعد أن ذكر قصص طائفة كثيرة من الأنبياء-: **{إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ}**[21].

وكما قال تعالى: **{يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ * وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ}**[22].

وقد أمر الله نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم بذلك؛ فقال: **{وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ}**[23]؛ أي: الموت؛ كما قال تعالى على لسان قوم: **{وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ * حَتَّى**

---

[18] [الأعراف: ٥٩].
[19] [النحل: ٣٦].
[20] [الأنبياء: ٢٥].
[21] [الأنبياء: ٩٢].
[22] [المؤمنون:٥١-٥٢].
[23] [الحجر: ٩٩].

أَتَاَنَا الْيَقِينُ}[٢٤]، وهو الموت، فالتكليف بالعبادة لازم له حتى يلقى ربه ولم تسقط عنه بسمو الروح، ولا بالاتصال القوي بالله، كما يدعي غلاة الصوفية.

وقال تعالى في شأن عيسى بن مريم، الذي رفعه قومه إلى مرتبة الألوهية: **{لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْداً لِّلّهِ وَلاَ الْمَلآئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيهِ جَمِيعًا * فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُواْ وَاسْتَكْبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلُيمًا وَلاَ يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللّهِ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا}**[٢٥].

ويعرض لنا القرآن مشهدًا من مشاهد يوم الحشر، يسأل الله فيه المسيح -عليه الصلاة والسلام- عما نسبوه إليه وافتروه عليه؛ فيجيب في أدب العبودية متبرئًا مما صنعوا **{وَإِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـهَيْنِ مِن دُونِ اللّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ * مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ}**.[٢٦]

فالأديان كلها دعوة إلى عبادة الله وحده، والأنبياء جميعًا أول العابدين لله، فعبادة الله وحده هي إذًا مهمة الإنسان الأولى في الوجود؛ كما بيّنت ذلك كل الرسالات؛ قال تعالى: **{شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيه}**[٢٧]. فقد دلت الآية الكريمة وما في معناها على وحدة الهدف والعقيدة، التي هي محور دعوة جميع الرسل من لدن نوح

---

[٢٤] [المدثر:٤٦-٤٧]
[٢٥] [النساء: ١٧٢- ١٧٣].
[٢٦] [المائدة:١١٦-١١٧].
[٢٧] [الشورى: ١٣].

-عليه الصلاة والسلام- إلى خاتمهم وأفضلهم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، الذي بعثه الله رحمة للعالمين؛ ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، ولينقذهم من أوحال الشرك وأدران الوثنية؛ فكان بذلك نبراسًا للأمة ينير لها الطريق، ومشعلاً **{يَهْدِي بِهِ اللّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنِ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ}**.[٢٨]

وقد كان السلف الصالح من الصحابة والتابعين يترسمون تلك الخطى النبوية، ويستلهمون سر وحدتهم من صفاء العقيدة الخالصة التي لم تشبها شائبة؛ فأصبحوا بذلك سادة الدنيا، وفتح الله لهم أبواب الخير من كل مكان ورفعوا راية التوحيد في مشارق الأرض ومغاربها، وكل عاقل يدرك أن هذا النصر المؤزر الذي حققه الله على أيديهم لم يكن وليد الصدفة، ولم يكن بسبب كثرة العدد والعُدَّة؛ وإنما تحقق ذلك بسبب اعتمادهم على الله، والتوكل عليه مع الأخذ بالأسباب المشروعة، وبدئهم بالأهم قبل المهم، وانطلاقهم في دعوتهم من تحقيق كلمتي التوحيد: "لا إله إلا الله محمد رسول الله"؛ لأن ذلك هو الأساس الذي أُمِرُوا أن يبدءوا به.

كما قال تبارك وتعالى: **{وَاعْبُدُواْ اللّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا}**[٢٩]، وقال تعالى: **{وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاه}**[٣٠]، وقال تعالى: **{قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا}**[٣١]، وقال تعالى: **{قُلْ هَـذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللّهِ وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}**[٣٢].

[٢٨] [المائدة:١٦].
[٢٩] [النساء:٣٦].
[٣٠] [الإسراء:٢٣].
[٣١] [الأنعام:١٥١].
[٣٢] [يوسف:١٠٨]

ومن السنة ما ثبت في الصحيحين من حديث عبد الله بن عباس –رضي الله عنهما- قال: (لما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم معاذاً إلى اليمن قال: **((إِنَّكَ تَأتِي قَوْمًا مِنْ أهلِ الكِتَابِ فَادْعُهُمْ إِلَى شَهَادَةِ أنْ لا إِلَهَ إلاَّ الله،.... ( ).**[٣٣]

ومما يدل على أهمية العقيدة، وكونها أساس كل عمل؛ تكفيرها للذنوب والكبائر إذا صدرت عن إخلاص وقوة إيمان، يدل لذلك ما رواه الترمذي وغيره، عن عبد الله بن عمرو بن العاص، من حديث صاحب البطاقة حيث يَنْشُرُ عَلَيْهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ سِجِلاًّ كُلُّ سِجِلٍّ مَدَّ الْبَصَرِ، ثم يُؤتَى ببطَاقَة فِيهَا: أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلهَ إِلاَّ اللهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَتُوضَعُ السِّجِلاَّتُ فِي كِفَّةٍ، وَالْبِطَاقَةُ فِي كَفَّةٍ؛ فَتطيش السِّجِلاَّتُ وَتثَقُل الْبِطَاقَةُ)).[٣٤]

وإذًا فتوحيد الله -تبارك وتعالى-، هو رأس الأمر كله، والجسد لا يستقيم بلا رأس؛ كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم: **((رأسُ الأمْرِ الإِسْلامُ، وَعَمُودُهُ الصَّلاةُ، وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ الجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ)).**[٣٥]

فهذه نصوص صريحة دالة على وجوب البدء بالدعوة إلى توحيد الله –تعالى-، قبل جميع التكاليف؛ لأن قبول جميع التكاليف مرهون بتحقيق ذلك، وهذا ما سار عليه السلف الصالح في دعوتهم، مما حقق لهم النجاح في برهة وجيزة من الزمن، أذهلت العقول وتحطمت أمامها عروش الكفر والطغيان.

---

[٣٣] **عَنِ ابْنِ عَبّاسٍ أَنّ مُعَاذًا قَالَ: بَعَثَنِي رَسُولُ اللّهِ صلى الله عليه وسلم. قَالَ: "إِنّكَ تَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ. فَادْعُهُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاّ الله. وَأَنّي رَسُولُ اللّهِ فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ. فَأَعْلِمْهُمْ أَنّ الله افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ فَأَعْلِمْهُمْ أَنّ الله افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدّ فِي فُقَرَائِهِمْ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ، فَإِيّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ. وَاتّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ فَإِنّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللّهِ حِجَابٌ".(البخاري (٦٤/٨)، ومسلم (٥٠/١-٥١).**

[٣٤] رواه الترمذي، وابن ماجه، وصححه الألباني.

[٣٥] رواه أحمد، والترمذي، وابن ماجه. وصححه الألباني.

وقد استمر الأمر على هذا الحال ثم بدأ الانحراف بعد ذلك عن هذه الجادة، بسبب الانصراف عن الكتاب والسنة -اللذين يجب أن نأخذ العقيدة منهما- والانشغال بالفلسفة والمنطق، اللذين لم يستفد منهما المسلمون غير تخريب العقيدة والقيل والقال والجدل الذي لا طائل تحته، ولا جدوى من ورائه؛ قال قائلهم:

«ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا **سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا»

الأمر الذي حدى بكثير من الناس إلى تعطيل صفات الله -عز وجل-، أو تفويضها أو تأويلها أو تمثيلها، وكذلك الحال في عبادة الله -عز وجل-؛ حيث لم يقتصر الأمر على التقيد بالكتاب والسنة ومنهج السلف الصالح في ذلك؛ حتى أصبح الناس في العبادة نتيجة لجهلهم بما كان عليه السلف الصالح من صحة الاعتقاد، أصبحوا ما بين مُفْرِطٍ ومُفَرِّطٍ.

فالْمُفْرِطُون أسرفوا في دعوى المحبة حتى أخرجهم ذلك إلى نوع من الرعونة والدعاوى، التي تُنافي العبودية، وتثبت الربوبية أو شيئًا منها لغير الله، ومعلوم أن الرب والمعبود هو الله وحده، ومع ذلك يدَّعي هؤلاء دعاوى تتجاوز حدود الأنبياء والمرسلين -فضلاً عن عامة الناس- أو يطلب من غير الله ما لا يصلح بكل وجه إلا لله، لا يصلح للأنبياء، ولا للمرسلين.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: "وهذا باب وقع فيه كثير من الشيوخ (يعني شيوخ المتصوفة) وسببه: ضعف تحقيق العبودية التي بيَّنها الرسل، وحددها الأمر والنهي الذي جاءوا به؛ بل ضعف العقل الذي به يعرف العبه حقيقته، وإذا ضعف العقل وقل العلم بالدين، وفي النفس محبة طائشة جاهلة؛ انبسطت النفس بحمقها في ذلك كما ينبسط الإنسان في محبة الإنسان مع حمقه وجهله، ويكون سببًا لبغض المحبوب له ونفوره منه؛ بل سببًا لعقوبته، وكثير من السالكين سلكوا في دعوى حب الله أنواعًا من أمور

الجهل بالدين، إما من تعدي حدود الله، وإما من تضييع حقوق الله، وإما من ادعاء الدعاوى الباطلة التي لا حقيقة لها؛ كقول بعضهم: "أي مريد لي ترك في النار أحدًا فأنا بريء منه، وقال الآخر: أي مريد لي ترك أحدًا من المؤمنين يدخل النار فأنا منه بريء".

فالأول: جعل مريده يخرج كل من في النار.

والثاني: جعل مريده يمنع أهل الكبائر من دخول النار.

ويقول بعضهم: "إذا كان يوم القيامة نصبت خيمتي على جهنم، حتى لا يدخلها أحد" وأمثال ذلك من الأقوال التي تؤثر عن بعض المشايخ المشهورين، وهي إما كذب عليهم، وإما غلط منهم" ا.هـ.

وإذا كانت هذه المقالات الإلحادية قد وُجدت في عهد شيخ الإسلام ابن تيمية وقبله، فإن في عصرنا من الدعاوى التي تبلغ حد التأليه ما هو أدهى وأمر.

من ذلك قول أحد زعماء الطرق الصوفية المعاصرين:

«قد خصني بالفضل والتشريف ** إن قلت كن يكن بلا تسويف»

ويدَّعي هذا الكذاب الأشر أن رجلاً نصرانيًا دخل الجنة بسبب أنه عاشر امرأة من أتباع ذلك الشيخ! معاشرة غير شريفة، مع أن المرأة التي عاشرها -كما يقول- ليست ملتزمة بالطريقة؛ ولكنه دخل الجنة ببركة شيخ الطريقة التي تنتمي إليها هذه المرأة.

ويقول أحد الأفَّاكين من هؤلاء: "إن من ضرورات مذهبهم أن لأئمتهم درجة لا يبلغها ملك مقرب ولا نبي مرسل![36]" إلى غير ذلك من المقالات الكفرية والإلحادية، القديمة والحديثة، والتي لا تكاد تُعد ولا تُحصى.

تُرى! ماذا ترك هؤلاء الملاحدة لله من العبودية!؟ إذا ادعوا بلوغ مثل هذه المراتب، وإذا سُئلوا عن تفسير هذه التُرَّاهات، ادعوا أنهم كانوا في حالة سكر بحب الإله!

---

[36] قال الشيخ –حفظه الله-: اسمحوا لي أن أبيِّن نقطةً هنا، كنتُ قد ترددتُ في التصريح بالكتاب الذي قال هذه المقالة؛ ولكن طالما وصل الأمر إلى حد ادعاء الألوهية؛ فإنني لا أجد غضاضةً في أنْ أُنبِّهَ إلى ذلك، أما الذي قال: "قد خصني بالفضل والتشريف ** إن قلت كن يكن بلا تسويف"، فإن قائل ذلك، هو ذلك الشيخ الملحد الذي ادعى أنه صاحب الفيضة التي بشر بها أحمد التيجاني، وهو إبراهيم نياس، في كتابه المسمى: بالأسرار، هذا الذي هلك في عام: ١٣٩٥ وفي كتابه أيضًا الأسرار –كما ينقل عنه الشيخ طاهر ميسري في كتبه التي ألفها عن التيجانية- ذكر -ذلك- قصة هذا الرجل الذي دخل الجنة بسبب أنه عاشر تلك المرأة معاشرة غير شرعية، وهو رجل نصراني! فانظر إلى أي حدٍ بلغ التهويل، وبلغ الأمر إلى حد اعتقاد ما لا يقدر عليه إلا الله – سبحانه وتعالى-.

وبخصوص الكلمة الأخيرة التي قال صاحبها: "إن من ضرورات مذهبهم أن لأئمتهم لا يبلغها ملكٌ مقرب ولا نبيٌ مرسل".

كُنَّا في مناظرةٍ أو لقاءٍ مع بعض الشباب من أهل السُّنَّة الذين تأثروا بهذه الدعوة الخمينية، وذهبوا إلى تلك البلاد ولعلهم أثروا فيهم؛ بل –الذي حصل- أنهم طمعوا في دعوتنا إلى هذا المنهج؛ كما يذكر بعض الإخوة الذين كانوا معنا في تلك البلاد، ولما قلت له –بالحرف الواحد-: لو قلت لك -قلت لهذا الشاب –الذي هو من أهل السنة وللأسف!- قلت له-: لو قلت لك: إن لأئمتنا درجة لا يبلغها ملك مقرب ولا نبيٌ مرسل؛ بما تحكم عليَّ؟ قال: لو قلت ذلك؛ فأنت كافر؛ قلتُ: لو قالها الخميني؛ قال: أمره إلى الله، حبك الشي يُعمي ويُصم، وعين الرضا عن كل عيب كليلةٍ؛ فانتظر إلى أي حد بلغ الغرور، أو بلغ الإلحاد، والغريب ليس في معتقد هؤلاء؛ فإنهم معروفون ولكن المصيبة كل المصيبة أن ينخدع بهذا عدد من أهل السنة، ويحسبوا هؤلاء الناس على الإسلام، والإسلام منهم براء.

قال الشاعر -في التهكم بهم، ووصف أحوالهم التي يزعمون أنها عبادة:

ألا قل لهم قول عبد نصوح		وحق النصيحة أن تستمع
متى علم الناس في ديننا		بأن الغنا سنة تتبـــع؟
وأن يأكل المرء أكل الحمار		ويرقص في الجمع حتى يقع
وقالوا سكرنا بحب الإله		وما أسكر القوم إلا القصع
كذاك البهائم إن أشبعـــت		يُرقِّصُها ريُّها والشِّبع
ويسكره النـــايُ ثم الغنـــا		ويَس ، لو تليت ما انصدع
فيا للعقول ويـــا للنهى		ألا منكـــــر منكمُ للبدع
تهان مســـاجدنا بالسماع		وتكرم عن مثـــل ذاك البيع

وقال آخر:

تلي الكتـــاب فأطرقوا، ولا خيفة		لكنه إطراق ساهٍ لاهي
وأتى الغناء ، فكالحمير تناهقوا		والله ما رقصوا لأجل الله
دفٌّ ومزمار ونغمـــة شادن		فمتى رأيت عبادة بملاهي
ثقل الكتاب عليهمُ لما رأوا		تقييده بأوامر ونواهي
سمعوا له رعدًا وبرقًا إذ حوى		زجرًا وتخويفًا بفعل مناهي
ورأوه أعظم قاطع للنفس عن		شهواتها يا ذبحهـــا المتناهي
وأتى السماعُ موافقا أغراضها		فلأجل ذاك إذا عظيم الجاه
أين المساعد للهوى من قاطعٍ		أسبابه عند الجهول الساهي؟

إن لم يكن خمر الجسوم فإنه		خمر العقول مماثل ومضاهي
فانظر إلى النشوان عند شرابه		وانظر إلى النشوان عند ملاهي
وانظر إلى تمزيق ذا أثوابه		من بعد تمزيق الفؤاد اللاهي
واحكم فأي الخمرتين أحق		بالتحريم والتأثيـــم عند الله؟

وما وصفه الشاعر من أحوال هؤلاء الناس يعطي صورة حقيقية عن مدى الانحراف الذي وقعوا فيه؛ حيث بلغ بهم الحال إلى اعتبار الرقص والغناء عبادة تقربهم إلى الله، بدعوى أن تلك الرقصات والأنغام الصوفية إنما هي نابعة من قلب مفعم بالمحبة؛ فجعلوا محبتهم للخالق مشابهة لمحبة المخلوق للمخلوق من وجود العتاب، والعذل واللوم والغرام، ونحو ذلك مما يجب أن ينزه الله عنه؛ لأنه لا يليق بجلال الله وعظمته.

ولكن الدليل والبرهان على محبة القلب لله وخضوعه له؛ إنما يتجسد في اتباع رسوله صلى الله عليه وسلم؛ قال تعالى: **{قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّه}**[٣٧]. فلا يكون محبًا لله إلا من يتبع رسوله صلى الله عليه وسلم، وطاعة الرسول ومتابعته لا تكون إلا بتحقيق العبودية.

وكثير ممن يدَّعي المحبة يخرج عن شريعته وسنته صلى الله عليه وسلم، ويدعـــي من الحالات ما لا يتسع هذا الموضوع لذكره؛ حتى قد يظن أحدهم سقوط الأمر وتحليل الحرام له، وغير ذلك مما فيه مخالفة لشريعة الرسول صلى الله عليه وسلم وسنته وطاعته.

بل قد جعل الله أساس محبته ومحبة رسوله صلى الله عليه وسلم، الجهاد في سبيله.

[٣٧] [آل عمران: ٣١].

والجهاد يتضمن كمال محبة ما أمر الله به، وكمال بُغض ما نهى الله عنه؛ ولهذا قال في صفة من يحبهم ويحبونه: **{أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ}** [المائدة:٥٤].

ولهذا كانت محبة هذه الأمة لله أكمل من محبة من قبلها، وعبوديتهم لله أكمل من عبودية من قبلهم، وأكمل هذه الأمة في ذلك هم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، ومن كان بهم أشبه كان ذلك فيه أكمل. «**هذا صنف**».

«**والصنف الثاني**»: المُفرَّطون وهم العصاة، أو الذين غلطوا في فهم حقيقة العبادة، وهم الذين ظنوا أن المحبة تنافي أدب العبودية، ولا تصاحب خشية الله ومخافته، التي يجب أن يتصف بها كل عبد لله، كما ظن أن المحبة لا تتحقق من المخلوق للخالق؛ وإنما المطلوب منه الطاعة والخضوع فقط.

ولذا نجد بعضهم يقول: "اللهم إني أعبدك لا طمعًا في ثوابك ولا خوفًا من عقابك"!، فانظر يا أخي المسلم، كيف فصلوا بين العبادة وبين الخوف والخشية، والمحبة والرجاء.

والحقيقة أن المحبة لا تنافي الخشية والمخافة؛ بل الخوف لازم للمحبة؛ كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: "إذ ليس عند القلب السليم أحلى ولا ألذ ولا أطيب ولا أسرّ ولا أنعم من حلاوة الإيمان، المتضمن عبوديته لله ومحبته له، وإخلاص الدين له، وذلك يقتضي انجذاب القلب إلى الله؛ فيصير القلب منيبًا إلى الله خائفًا منه، راغبًا راهبًا؛ كما قال تعالى: **{مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَن بِالْغَيْبِ وَجَاء بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ}**[38].

---

[38] [ق:٣٣].

إذ المحب يخاف من زوال مطلوبه، أو عدم حصول مرغوبه، فلا يكون عبدًا لله ومحبه إلا بين خوف ورجاء؛ كما قال تعالى: **{أُولَـئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا}**.[٣٩]

فقد دلت الآية الكريمة على أن كل عبد مخلص لله، لابد أن يكون مع عبادته بين الخوف والرجاء، وقد نص العلماء -رحمهم الله- على أنه ينبغي للمسلم أن يُغلِّب جانب الخوف في الصحة حتى لا يأمن من مكر الله، وأن يُغلِّب جانب الرجاء في المرض حتى لا ييأس من روح الله، والآية الكريمة نزلت في أناس من الإنس كانوا يعبدون نفرًا من الجن، فأسلم الجن وبقي الإنس على عبادتهم إياهم؛ فأخبر الله -تعالى- أن هؤلاء المدعوين يطلبون القربة إلى الله -عز وجل- بالعمل بما يرضيه خوفًا من عقابه وطمعًا في ثوابه، وهذا ينطبق على كل من يدعو غير الله في الوقت الذي يكون المدعو أحوج ما يكون إلى عبادة الله؛ كما يُقال: "فاقد الشيء لا يعطيه"، ومع ذلك نجد كثيرًا ممن انتكست فطرتهم، يعكف عند ميت في قبره، يطلب منه قضاء الحاجات وتفريج الكربات، ويزعم أنه يعلم الغيب ويعطي الولد، وغير ذلك مما لا يقدر عليه إلا الله -سبحانه وتعالى-، ولا نكاد نجد بلدًا من بلاد الإسلام؛ إلا وفيه أنماط من هذه الطقوس، التي حالت بين الناس وبين فهم العقيدة الصحيحة.

ومن هنا تبدو الحاجة ملحة إلى بيان تلك العقيدة الصافية الخالصة التي ترتكز على نصوص الوحيين الكتاب والسنة.

فالإنسان في كل زمان ومكان في حاجة ماسة إلى عقيدة تحدد له غايته، وتوضح له منهجه الذي يسير عليه لتحقيق هذه الغاية، ولكنه عندما تنتكس فطرته وتطول غفلته وينقلب فهمه؛ حتى يرى حسنًا ما ليس بالحسن، عندها تتحول عقيدته إلى حجر يقدسه،

---

[٣٩] [الإسراء:٥٧].

أو شجر يعظمه، أو شمس تضيء نهاره، أو قمر ينير ليله، أو بحر تتلاطم أمواجه، أو نار تتلظى، أو حيوان يهابه، أو إنسان يكبر في نفسه، أو أي مخلوق يرى له فضلاً عليه من ملك أو جني أو نبي أو وليّ، ميت أو حي، فيتعلق من ذلك كله بما هو أوهن من خيوط بيت العنكبوت.

قال تعالى: **{مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاء كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ}**[٤٠]

وقد يكون ذلك منه لمجرد التقليد من غير وعي أو تفكير؛ قال تعالى: **{وَقَالُوا لَوْ شَاء الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم مَّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ * أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ * بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ *وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ}**[٤١]

وقد يكون الانحراف في العقيدة باتباع الهوى الذي ذمه الله في غير ما آيـــة من كتابه العزيز.

قال تعالى: **{أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ}**.[٤٢]

---

[٤٠] [العنكبوت:٤١].
[٤١] [الزخرف:٢٠-٢٣].
[٤٢] [الجاثية:٢٣-٢٤].

وقال تعالى: **{إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَى}**.[43]

وفي هذا العصر الذي ادلهمَّت فيه الظلمات، وانقلبت فيه الحقائق، وتغيرت فيه المفاهيم، يتساءل الفرد المسلم عن طريق الخلاص، يتساءل وهو حائر بين هذه الجماعات المتصارعة، والأحزاب المتناحرة، والدعوات المتفرقة، ذات المناهج المختلفة التي تدّعي لنفسها السير على المنهج الصحيح.

«وكل يدعي وصلاً لليلى ** وليلى لا تقر لهم بذاك»

وهذه الدعوات لا يخلو أمرها من حالين:

إحداهما: الخطأ في المنهج والسلوك؛ كمناهج الطرق الصوفية التي ذكرنا فيما سبق بعض مقالاتهم الإلحادية التي لا تمت بصلة؛ بل صرفت أتباعها عن الاعتماد على الكتاب والسنة، اللذين هما مصدر شريعة الإسلام.

والحالة الثانية: الخطأ في الفكر؛ كمثل جماعات الدعوة الإسلامية المعاصرة، والتي تنطلق في دعواها من منطلق حزبي ضيق.

الأمر الذي بَعُدَ بهم عن منهج السلف الصالح، إذ أن هذه الجماعات لم تُؤسس بناء دعوتها على توحيد الباري -جلَّ وعلا- والعقيدة السلفية الصافية من الشوائب.

فإن من تأثر بتلك الدعوات إن كان من أهل العقيدة أصلاً، لا يكون ولاؤه لها ولا يكون فكره متفقًا معها؛ بسبب سيطرة هذه المناهج على أفكاره؛ حتى ماتت العقيدة في نفسه فأصبح لا يدعو لها وإن كان يعتقدها؛ لكنه بَعُد عنها تحت تأثير المنهج الحزبي؛ لأنه يوالي ويعادي على ذلك الفكر الضيق، الذي بُني على غير أسس سليمة، فلا يكون للعقيدة

[43] [النجم:٢٣].

مكان ولا مجال في التطبيق العملي، ولا تعطي ثمراتها الطيبة اليانعة فهي لا تفيد معتقدها؛ لأنها قد فقدت روحها فأصبحت بلا روح كالجذوة التي استترت وانغمرت تحت الرماد.

وخطورة هذه الأمر لا تقل خطورة عن الجهل بالعقيدة، فإن من يعرف العقيدة ولا يدعو إليها هو كالجاهل بها سواء بسواء، وهؤلاء إنما أصيبوا بالخرس عن الدعوة إلى العقيدة، بدعوى أن ذلك يفرق الأمة ويمزق كيانها؛ لأنهم يريدون أن يجمعوا تحت لوائهم من هب ودب، لا فرق في ذلك عندهم بين ملتزم بالعقيدة الصحيحة وغيره.

إذ أن الهدف الذي يقصدونه هو مجرد الجمع دون تمييز، وهذا منهج بلا شك سينتهي بأصحابه إلى الفشل الذريع، نظرًا لكونه قد بني على غير أسس سليمة، وذلك أن أصحاب هذا المسلك أتوا من عدم الفهم والإدراك الصحيح؛ حيث لم يفرقوا في الدعوة بين الأصول والفروع.

فتراهم يبدءون بالدعوة إلى بعض الفروع، ويزعمون أنه متى أقيم هذا الفرع فإنه سوف يُوجد الأصل تلقائيًا، ولذا نرى كثيرًا منهم يهتمون بالجانب السياسي بدعوى أنه متى وجدت الدولة التي ينشدونها عند ذلك تصلح العقيدة وغيرها مما فسد من أحوال المسلمين، وهذا تصور غير صحيح؛ لأن صاحب هذا التصور ذكر شيئًا وغابت عنه أشياء.

هذا على فرض أن صاحب هذا الفكر حسن النية، بيد أننا نشك في حسن نيته وإنما يموِّه بذلك على أولئك الذين لا رسوخ لهم في فهم العقيدة مستغلاً عواطفهم نحوها، ولكنه ينوي خلاف ذلك؛ لأنه ليس من أهل العقيدة، ولا أدل على ذلك من كونه يدعـــي أن الدعوة إلى العقيدة تفرق الأمة كما أسلفنا.

نعم، الإسلام دين ودولة، وعقيدة وشريعة؛ ولكن يجب أن نأخذه كوحدة متكاملة؛ بحيث ينطلق في سياسته وجميع أموره من العقيدة الإسلامية المستمدة من الكتاب والسنة،

وهما كفيلان ببيان منهج الدعوة الإسلامية -كما فصلنا ذلك فيما تقدم-، لا بمجرد الدعاية والأناشيد الحماسية والهتافات والشعارات الجوفاء، التي لم يستفد منها المسلمون سوى القضاء على الدعوة وأهلها في كثير من البلاد؛ حيث يهيجون الشباب المسلم، ويلهبون حماسه، ويستثيرونه إلى أن يثور، ويتحرك فيقع في أيدي الطغاة الظلمة أعداء الإسلام والمسلمين؛ فيقضون على هؤلاء الشباب، ويهدرون هذه الطاقة نتيجة لذلك المسلك الخاطئ، الذي تسلكه تلك الجماعات في دعوتها.

وإذا أردنا أن يتحقق للمسلمين ما يصبون إليه وما يتطلعون إليه من العودة بالمسلمين إلى الإسلام الصحيح، فعلينا أن نسلك بهم طريق التعليم والتربية وتفقيه الشباب المسلم في دينه، وتبصيرهم في ذلك؛ حتى تزول -بإذن الله- تلك الشوائب، التي علقت بالدين ودعوته، وتلك الرواسب التي أكل عليها الدهر وشرب، التي انحرفت بالمسلمين عن الجادة الصحيحة التي رسمها لهم الله -عز وجـــل- في كتابه المبين، وبينها رسول الهدى صلى الله عليه وسلم في سنته المطهرة، ولنا أسوة حسنة في أولئك الدعاة المصلحين الذين أسسوا دعوتهم على عقيدة الإسلام وبدءوا بتطهيرها من شوائب الشرك والخرافات، الأمر الذي تحقق بسببه رفع راية التوحيد خفاقة في ربوع الجزيرة العربية، بعد أن ران عليها الجهل، وخيم عليها الظلام عدة قرون، وعاد كثير من الناس إلى الشرك والخرافات؛ فانقشع ذلك الجهل، وتحول ذلك الظلام إلى نور على يد شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله-، الذي بدأ بتعليم الناس العقيدة الصحيحة، وقامت بفضل هذه العقيدة دولة التوحيد، منذ أن قام الإمام محمد بن سعود -رحمه الله- مؤسس هذه الدولة المباركة، هذه الدعوة الطيبة؛ فكتب الله لها بذلك النصر والبقاء، وزالت مظاهر الشرك والوثنية في برهة وجيزة، وهي لم تكن لتزول لو لم تنطلق هذه الدعوة من روح العقيدة.

ولستُ مبالغًا حينما أذكر هذه الحقيقة؛ فإنها حقيقة يُسلّم بها الأعداء فضلاً عن الأصدقاء، والحق ما شهدت به الأعداء.

وخلاصـــة القول: إنه لا صلاح لنا ولا فلاح ولا نجاح لدعوتنا؛ إلا إذا بدأنا بالأهم قبل المهم، وذلك بأن ننطلق في دعوتنا من عقيدة التوحيد، نبني عليها سياستنا وأحكامنا وأخلاقنا وآدابنا، ننطلق في كل ذلك من هدي الكتاب والسنة بلا إفراط ولا تفريط، ذلكم هو الصراط المستقيم، والمنهج القويم الذي أمرنا الله –تعالى- بسلوكه؛ فقال: **{وَأَنَّ هَـــذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ}**.[٤٤]

وقال تعالى: **{واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا}**[٤٥].

وقال رسول الهدى صلى الله عليه وسلم: **((تركت فيكم أمرين، لن تضلوا بعدي ما تمسكتم بهما، كتاب الله وسنتي))**.

ويقول الإمام مالك بن أنس -رحمه الله-: "لن يصلُح آخر هذه الأمة إلا بما صَلُح به أولها".

اللهم إنا نسألك أن ترد المسلمين إلى دينهم ردًا جميلاً، ونسألك أن ترينا الحق حقًا، وترزقنا اتباعه، والباطل باطلاً، وترزقنا اجتنابه، وأن لا تجعله ملتبسًا علينا فنضل، إنك ولي ذلك والقادر عليه، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وأتباعهم بإحسان إلى يوم الدين.

---

[٤٤] [الأنعام:١٥٣].
[٤٥] [آل عمران:١٠٣].